مكتبتى ٣٣

سيناءُ تُغَنِّى

بقلم : فريد محمد معوض
رسوم : أحمد عبد النعيم

دار المعارف

تصميم الغلاف: **محمد أبو طالب**

دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة: ج.م.ع.

إعداد الماكيت: أماني والي

صرَخَ «مَارد» فِى وجُوه رجَالِه :

- ما هَذا الذِى يحدُث ؟

قالَ أحدُهم :

- يحفِرون ترعَةً.

- تُرعَة ؟! وهَلْ لدينَا ترعٌ فِى سيناء ؟

التُّرع فِى الوَادِى .

- إنَّهُم يريدُونَ أنْ تصبحَ سيناء وادِياً .

- وهل لدينَا مَاءٌ يملأ هذِه الترعَة ؟

- ماءُ النيلِ يَا «مَارد».

- آه يَا رأسِى . . وكيفَ يمرُّ ماءُ النيلِ مِنَ الوادِى القديمِ إلى هُنَا

- مِنْ تحتِ القناةُ . . هكَذا يقولُون .

- اسكُتْ يا مجنُون .

كانَ الولدُ «عَايِش» يتابِعُ مِنْ قريبٍ مَا دارَ مِنْ حِوار، وكانتِ البنتُ «سيناء» قدْ اعتلت ربْوَةً عاليَة فوقَ إحْدى القمَمِ ، وراحَت تتنفخ فى النَّاى ، وحولها كانَتِ الأغنامُ ترعَى فِى الأرْضِ فى سعَادةٍ وانسِجَام.

جَرى «عايش» وصَاح قائِلا :

- «سيناء» يا «سيناء» !!

جَرت «سِيناءُ» نحو «عايش» قائلَةً :

- مَا بِك يا «عايش»؟

أشارَ «عايش» تجاهَ الواقفِينَ وقَال :

- هؤلاءِ يا «سيناء .. انظرِى ... إنهُم يقتربُون مِنَ المجرى.. وليْسَ هنَا أحدٌ.. رجال الحفرِ فى إجَازةِ العِيد، والمهندسُ «أحمدُ» لم يحضُرْ بعْد، وهَذِه المعدَّاتُ والآلاتُ.. انظرى إنهُم يقتربُونَ منْهَا .

جَرى «عايش» و«سيناء» تجَاه الرجَالِ بشكْلٍ لا يُوحِى أنهمَا يتعمَّدَانِ الاقترَاب.

قَال «مَارد» : هلْ تعرفُونَ معْنى أنْ تُشَق الترعَة؟ هذَا إنْ صدَق الكلام.

قالَ أحدُ رجَالِه : ومَاذَا فى ذَلِك ؟

قَالَ «مَارد» : عندمَا تشَق الترعَةُ فى قلْبِ هَذِه الصحْرَاءَ سوفَ يأتِى الماءُ .

قَالَ الرجُل : ومَاذا فِى ذَلك ؟

قال «مَارد» : عندمَا يأتِى الماءُ ستخْضرُّ الأرْض.

قَالَ الرجُل : ومَاذا فِى ذَلك ؟

قَالَ «مَارد» : يَا لَكَ منْ غبِىٍّ . معنَى هذَا أنَّ أناساً كثيرِينَ منَ الذينَ تكدسُوا على أربعَة فى المائَة فقط من أرض مصر سيأتون معَ الخضْرة .

قَالَ الرجُل : ومَاذا فى. . .

قَالَ «مَارد» : لا تكْمل أيُّهَا الغَبِىُّ.. هَذِه صحَارِينا.. مَرَاعِينَا.. وهِىَ لنا وليستَْ للوادِى القدِيم .

قَالَ أصغرُ رجَاله : لكن الوادِى سيخْضَرُّ.. سيكونُ جَميلاً لنا ولهم.. ونكونُ قوةً - نحنُ وهُم.

صَاحَ «مَارد» : مَا الذِى أصابكُم يا حَمْقى. . إنكُم لا تعرِفونَ أيْنَ تكمنُ مصَالحكم. . هَيَّا احْمِلوا هَذِه الآلات وابعدُوهَا مِنْ هنا. . جولتنا الأولى أنْ نعطلهم بأىِّ شكل .

وبدأ الرجالُ يستجِيبُونَ لأمْرِ كبيرِهم، وكانَ «عايش» و«سيناء» يتابعَانِ منْ قريب ما يَدُور.

قالتْ سِينَاءُ :

- هلْ سمعْت؟ أنهُم يرِيدُون أنْ يُوقفُوا كلَّ شىْء.

قَالَ «عايش» :

- لا تخَافِى يا «سِينَاء». . لنْ يستطِيعُوا أنْ يُوقِفُوا شيئا. . هيَّا نادِى على غنمِك. . وأمْسِكى نَايكِ وسوفَ أفعَل مِثْلك.

وبسرعَةٍ كَانت الأغنَامُ فى طرِيقهَا نحوَ الرجالِ الواقفِينَ بجِوَارِ الآلات، وكانتْ «سيناءُ» قد اعتلت

ربْوتَهَا العَالية ، وأخذَت تتفخُ فى نايِهَا، صرخَ «مَارد» لمجرد رؤْيتهمُا :

- توقفُوا لنَرى مَا الأَمْر ؟

- إنهمَا طفْلان يَا سيِّدى.. لا تأبه بهمَا.. هيَّا.

- قلتُ لكُم توقفُوا. . السيناوِى لا ينسَى وجهًا حتى لوْ كانَ هذا السيناوِى طفلا انتشرَت الأغنامُ بجوَارِ الترعَة، وبدَت كمَا لوْ أنهَا قدْ حاصرَت الرجَال، استَمرَّت سيناءُ فى نفخ نايِهَا، انسَاب صوتُ النَّاىِ فى البريَّة، حل سكونٌ جميل، لمْ يقطعْ السكون سوَى صوْت إعجَاب إحْدَى النعاجِ بصوْتِ الناى فقَالت :

- مَاء. . . مَاء .

صرَخ «مَارد» :

- مَاء مَاء ؟! حَتَّى النعْجَة تتحدَّانِى .

ثم صَاح فى وجْهِ «سيناَء» :

- كفَى أيتهَا الصغِيرةُ وإلاَّ كسرَتْ نَايَك .

قَال «عايش» :

- إنَّه نايٌ جميلٌ يَا سيِّدى .

قَال «مَارِد» :

- هيَّا انصرفَا منْ هُنَا .

قَال أحدُ الرجَالِ :

- أرى يا سيِّدى أنْ ننصرفَ الآنَ حتى لا يَفْتضح أمرنا مِنَ هذيْنِ الصغيريْن.

قال «مارد» :

- هيَّا .

صاحَت بعضُ الأغنامِ فِى صوْتٍ واحدٍ وكأنَّهُ اتفاقٌ مسْبَق :

- ماء. . ماء.

صرَخَ «مارد» :

- كفى أيتُهَا الأغنام الملْعُونَة .

ضحِك «عايش» وابتسمَت «سيناءُ» ، ثمَّ مرَّت سحابَةٌ حزْنٍ على وجْهِهَا :

- هل سمعْتَ يا «عايش». . إنهُم يدبِّرُونَ أمْرًا.

- نعم. . هذَا واضحٌ يا «سيناء».

- أخْشى أنْ يتوقَّفَ المشرُوع .

- الترعَة ؟

- نَعَم الترعَة .

- لا تخَافِى .

- مشْتاقة يا «عايش» للمَاء.. للزرْع.. للخضْرة.. للنَّاس..

- مشْتاقَةٌ أنْ أرى الناسَ وهُمْ يتوافدُون إلى هنَا. . هل هَذا سيحْدُث ؟

- سوْفَ يحدُث. . علينا أنْ نباشرَ مكانَ العملِ حتى يعُودَ المهندِسُ «أحمدُ» ورجال الحفرِ من إجازةِ العيد .

- ألستَ ترَى المهمَّة صعْبَةً .

- بالطبْعِ يا «سيناء» لكنْ لابد. . سوفَ أذهبُ الآنَ لإحضارِ الخبْزِ والماء .

- يرعاكَ اللهُ يا عايش .

وانطلقَ «عايشٌ» سريعاً، بينما صعدَت «سيناءُ» لقمَّة رمْليَّة، وأمسكَت بالنَّايِ وأخَذَت تنفخ فيه، فانسابَ اللحْنُ عذباً، واجتمعَت حولها الأغنام، وتذكرَت المهندِسَ «أحْمَدَ» وهوَ يقول لرفاقِهِ المهنْدسِين :

- سوفَ يعمُّ الخيرُ عندمَا يصِلُ الماءُ لهذِهِ الأرْضِ العطْشى .

سألتْه «سيناءُ» :

- وهَلْ بمقْدُورِكم يا باشْمهَنْدِس أنْ تفعلُوا ذلِكَ.

- نعم.

- كَيْف؟! . . لا أتصورُ أنْ يمرَّ الماءُ مِنَ البحْر.

- نَعَم منْ تحتِ القناةِ يا «سيناء».

- كيْف يا باشْمهنْدِس .

- ألاَ تثقِينَ فى المهنْدسِ المِصرِى يا «سيناء».. نحنُ الذِين حفرنَا القناةَ ونحنُ الذينَ عبرنَا القناةَ.. ونحنُ أيضاً سنحفرُ تحتَ القناةِ حيْثُ نصنَعُ سحَّاراتٍ يتدفَّقُ خلالها الماءُ مِنَ الوادِى لسيناَء .

آه. . تذكَّرتُ «سيناَءَ» سَاعةَ أنْ قَالَ المهندسُ «أحمدُ» وقد تهلل وجهُهُ فرحاً :

- هَيَّا يا «سيناَء»..لا تعطِّلِينَا ولاَ نُعطِّلك.. هَا هِى غنمك قد تبعْثرت بَعِيداً فأمْسِكِى نَايكَ واجْمعِيهِم.

وردَّت سيناَءُ :

- هذَا النَاىُ هو الذِى يجمعُ غَنَمِى فهى تعرِفُ صَوْته، وتسعدُ بِه، ولولاَهُ لصعُبَ ذَلِك.

* * *

فى لمْحِ البصرِ لمحتْهُم «سيناَءُ» لقدْ عادُوا مرةً أخْرى، ارتعدَت «سيناَءُ» مِنَ الخوْف، وهمسَت

- أيْنَ أنْتَ يا «عايش» ؟

صرخ الرجُل فى وجْهِهَا :

- مَاذَا تفعلَين ؟

ردَّت «سيناَءُ» :

- كمَا ترَى. . أرْعَى غنَمِى واعزْفُ لهَا .

قَالَ أحدُهُم :

- دَعينِى انظرُ هَذَا النَّاى .

أعطتْه «سيناءُ» النَّاىَ ، وأخَذَه الرجُل، طوحَه بَعِيدًا، بكلِّ ما يملْكُ مِنْ قوْة ، ارتفعَ النَّاىُ عاليًا و«سيناءُ» تتابعه بعيْنيْهَا ، ثُمَّ سقط النَّاىُ فِى الرِّمَال، تتبعتْهُ سيناءُ باكيَةً ، ورأتْ غنمَهَا تفرُّ فزعَةً، لقدْ طردُوا غنمهَا . كانتْ «سيناء» حائِرةً بيْنَ الناى وغنمها، ولأنَّ النَّاىَ هُوَ الذِى يجمَعُ غنمهَا ، كانَ لابدَّ أنْ تبحَثَ عنْهُ أولا:

- النَّاى. . . النَّاى!!

أخَذَت تواصِل البحْث، حتَّى وجدتْه مَرْميًّا، أخذَتْه «سيناء»، قبلتْه، أحستْ بالفرَحِ الشدِيدِ لقدْ عادَ لهَا نايُهَا، لكِنْ أيْنَ الغنَمُ ؟!

نظرَت «سيناءُ» حولهَا فلَمْ تجِدْ غنمَهَا، جلسَت فوقَ ربْوةٍ عَاليةٍ وراحَت تتفخ فِى النَّاىِ غيْرَ أنَّ الغنَمَ لمْ تأت.. مَا هذا الذِى يحْدُث، غنَّتْ «سيناءُ» بنايِهَا، أخَذَت تجُوبُ الأرض الممتدَّةَ فتخْرج أنْغَامًا حزِينَة، حلقَت فوقَ «سيناءَ» الطيُور، وبدَأ الكونُ أكْثرُ صفاءً وشُروقا، وصوتُ النَّاى ينسَابُ فِى قلبِ الوادِى فيمْلأُ المكانَ روعَةً وشجنًا، وفرَّت دمعتَانِ مِنْ عيْنَىْ «سيناء»، لمحهما

طائرٌ يطيرُ تمنَّى لوْحَطَّ علَى رأسهَا ومسحَ بجناحيْهِ هَاتيْنِ الدَّمْعتيْن، نظرَت «سيناءُ» فوجدَتْ شيئًا عَجِيبا، الغنَم وهِيَ تَجْرِى نحوهَا سَعيدةً بصوْتِ النَّاى، كادَت أنْ تقفزَ فرحا، وتتْرك النَّاى، لكنَها أصرَّت أنْ تستَقْبِل غنمَها بالنَّاى، قالتْ «سيناءُ» لنفسهَا:

- آه. . . لو يصبحُ وادينَا أخْضَر. . آه. . . أيتهَا الأغنامُ الحزِينَة سَوْفَ تسعدِينَ يوماً بالخضْرَة.

وتذكَّرَت «سيناءُ» ما حَدَث. . تُرى ماذا فعلُوا. بالترعَةِ والآلات، وتذكَّرَت «عَايِشًا».. أيْنَ أنتَ يا عَايِش؟ قالتْ «سيناءُ» لنفسِهَا: سوْفَ أعطِيه الإشَارة. نفخَتْ «سيناءُ» فى نايِهَا بطريقةٍ أخْرى فانسابَ اسمُ «عايش» فى الوادِى عذْبًا رقيقًا. . أخذَت تكررُ ذلك حتى لمحتْهُ يهبِط من فوْقِ ربوَةٍ عاليَة:

- قَادمٌ يا «سيناءُ» إليْك. . لا تخَافِى .

وفَرِحَ «عايش» عندمَا لمحَ الغنَم وهى تلتفُّ حول «سِيناء» ، غيرَ أنَّ وجْهَه قدْ بدَأ حزِينا، ولمحتْه «سيناءُ» فكفتْ عنْ نفخِ نَايِهَا، وصَاحَت :

- لقدْ فعلُوا شيئا . . أليْسَ كذلك ؟

- للأسَفِ يا «سيناءُ» .

- قُلْ لِى مَاذا فعلُوا يا «عايش» ؟

- لقدْ ردَمَ «مَارِد» وأعوانُه جُزْءًا مِنَ الترعَة.

- هَذِه جريمَة..يجبُ ألاَّ نسكت..هيَّا نبلِّغُ كُلَّ النَّاس:

صاحَ «عايش» :

يا أولادُ . يا «أحْمدُ».. يا «ناجى».. يا «عبيد».. يا«قمر».. هيَّا.. تعالوا..

انظُروا لقدْ ردَمُوا جُزْءً ا مِنَ الترعَة.

صاحَت «سيناءُ» : انظرُ أنتَ يا «عايش».. أليسَ هَذَا القادمُ هو المهندسُ «أحمدُ» ؟

صاحَ الأولادُ جميعُهُم فى صوتٍ واحدٍ: هو.. هو.. نعم هو.

كانَ المهندسُ «أحمدُ» يحملُ حقيبةً فِى يَدِه، وعندمَا رأى الأولادَ تهلل وجْهُه فرَحًا وقال:

- جِئْتكم جِئْتكُم.. لَمْ أشأ أنْ أكمل إجَازتى فى الوادِى القديم بكتْ «سيناءُ» وهِىَ تقول :

- حسنًا فعلت

بدَا القلقُ على وجْهِ المهنْدسِ :

- مَا بِكِ يا «سيناءُ» .. لماذا تبْكِين ؟

ردَّ الأولادُ فى صوْتٍ واحدٍ : لقد ردَمُوا جزْءً ا منَ الترعَة.

شردَ المهندسُ «أحمدُ» قليلا وقالَ لنفْسه :

- لابدَّ أنه هُو.. «مَارِد» آخَر.. فى كُلِّ مكانٍ يطلعُ لنا مارد ثم ننتصرُ عليْه.

- مَاذَا تقول يا باشْمهَنْدِس ؟

- لاَ عليْكُم يا أوْلاَد.. يجِبُ أنْ تعلَمُوا أننا معرضُونَ لذلكَ مِنْ قلة قليلة.. لا تريدُ الخيْر.. كمْ تعرضْنَا لذلك منذُ بدأنا الحفْرِ فِى الترعَة. . . وسوفَ نتعرَّضُ لذَلك.. هلمُّوا لأريكُم ماذا أحضرْتُ لكُم من الوادِى.

أخذَ المهندسُ «أحمدُ» يفتحُ حقيبتَه، وأخْرجَ لوحَاتٍ مرسُومةٍ وقال:

- هَذه رسومُ حامدِ ابْنِى. . هذِه صُورةٌ لسيناء.. انظرُوا كمْ هِىَ جَميلة.

- إنهَا خضْراء يا باشْمهَنْدِس.

- نعَم.. لأنَّ حَامدًا رسَمَ سيناءَ المستقبَل.

- وصُورةُ مَنْ هَذِه يا باشْمهَندس ؟

- ألا تعرفونهَا.. إنهَا صورةُ أستاذِكُم «مُحمَّدِ السيناوِى».. مدرسِ التاريخِ والجغْرافيا.. والذى عرَّفنِى عليْكُم وزرعَ فى قلوبِكم حبَّ الخضْرةِ والجمال وجعلَكم تأتُون إلى هُنَا.. مَا أخبَاره يا أوْلاَد ؟

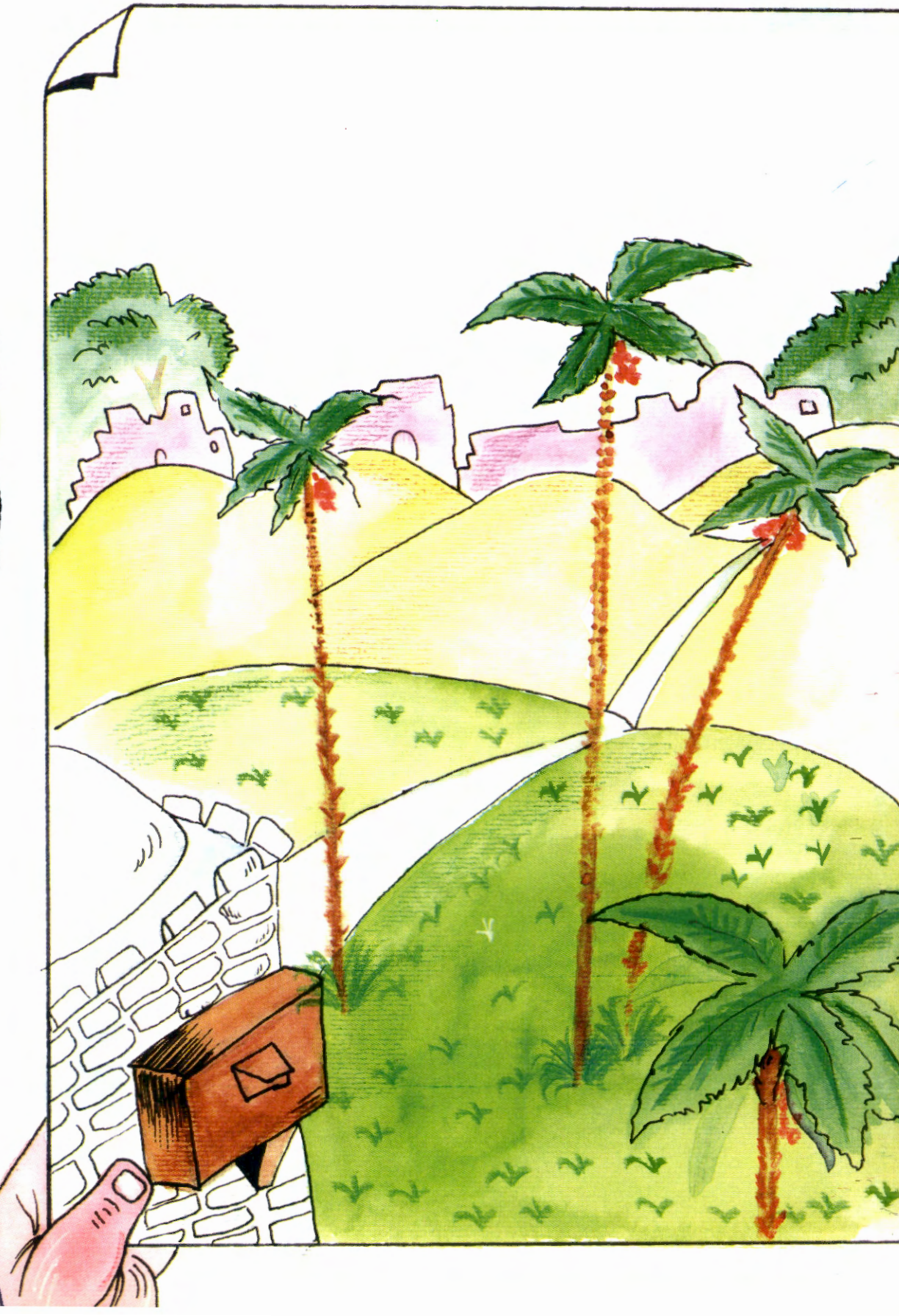

- كانَ يتفقَّدُ العملَ بالأمْس يا باشمهندس ويدعُو لكَ بالخيْر.

وأشَارَ «عايش» لصُورة تجمَعُ عددًا منَ الأولادِ وقَال:

- هَذِه لنَا يا باشمهندس ؟

- نعَم. . هَذِه لَكَ ولسيناءَ وناجِى وعيسَى وأحْمد وأولادٍ كثيرين، كنتُ أحْكى لحامِد فيتصورَكم هكذا .

وأشَارَ المهندسُ «أحمدُ» لصُورٍ أخْرى وقَال:

- وهَذِه صورٌ أخْرى لأماكِنَ خضْراءَ فى قريتنا بالوَادِى القدِيم. . . هذَا حوضُ السَّاقيةِ وهذِه أرضُ العشْرِين.. وجسرُ سَلام.. وحوضُ الودنة.. وأرضُ يونُسِ.. وأرضُ الشنهاب.

قالتْ «سيناء» :

- اللهُ يا باشْمهندس إنَّ رسُوماته رائعةٌ.. إننى أودُّ أنْ أراه.

قال المهندس «أحمد» :

- سيأتِى يا «سيناءُ».. سيأتى معَ ماءِ النيلِ، وخضْرة الوادى القدِيم.. سيأتِى بعْد أنْ تكتمِل الجنَّة.. سيأتِى ليرَى النخْل باسقاتٍ والأرضَ مبتهِجَة، والأولادُ يملأونَ الوادِى هَذَا، وستَصبْحُ «سيناءُ» أكثرَ قوةً بالناسِ وسيخْشَى العدوُّ بأسَها.

وعندمَا أرادَ المهندسُ «أحمدُ» أنْ يُشيرَ بيدِه لاتساع الأرضِ حولَه لمَحَهُم - كانَ «ماردٌ» وأعوانُه، صاحَ المهندسُ «أحمدُ» :

- هيَّا يا أولادُ.. عُودُوا إلى بيُوتِكم.. هَا هُو «مارِدٌ» ومعَه رجَاله قالتْ «سيناءُ» :

- لنْ ندعكَ معَهُم .

وقَال «عايش» :

- نعَم سنبْقَى .

وقَال الأولادُ فى صوْتٍ واحدٍ: نعَم سنبْقَى جَمِيعاً .

قال المهندِسُ :

- أرجُوكُم..لابدَّ أنْ تَمْضُوا فورًا حتىَّ لا تفسِدُوا كُلَّ شَىء .

وهنَا جرَى الأولادُ مبتَعدِين.

قَال أحدُ رجالِ «مَارد» :

- ها هُم الأولادُ يبتعِدون.

وقالَ آخرُ :

- ويبدُو أنَّ هذَا هُوَ المهنْدِس.

قَال «مارد» غاضباً :

- المهندسُ ؟ هلْ قطعَ إجَازتَه. .! الأمرُ إذَن لم يعُدْ فى حَاجَةٍ للتَّنكرِ سوْف نكشِفُ عنْ وجُوهِنَا.

كانَ المهنْدسُ «أحمدُ» لايزال واقفًا كالألِفِ حينَ صاحَ «مَارد» :

- أهْلاً بمهنْدسِ الترعَةِ .

ضَحِك. . رجالُ «مارِد» وأجَابَ المهنْدسُ :

- أفخَرَ بأنْ أكونَ مُهندساً لترعَةِ تشُقُّ «سيناء» تنبتُ الخيْرَ للآكلين.

وَجَم الواقفُونَ وصاح «مارد» ثانيةً :

- أنتَ المهندسُ الوحيدُ الذِى يعرضُ نفْسَه للأخْطار.

قَال المهنْدسُ : هَذَا أشْرفُ به.

قَال «مَارد» : شَقُّ الترعةِ مستَحِيل.

قَال المهنْدسُ: وحفرُ القناةِ كَانَ مُستَحِيلا.. و«خط بَارْليف» كانَ مستَحِيلا.

قَالَ «مَارد» : قلتُ لكَ مُستَحِيل.

قَالَ المهندس: لكنَّنَا قطعْنَا شوطًا طوِيلاً.

قَال «مَارد» : لا نريدُها أنْ تَشُقَّ مَنْطِقتَنَا.

قَالَ المهندسُ: كيفَ إذنْ تَمْضِى فِى «سيناءَ»؟

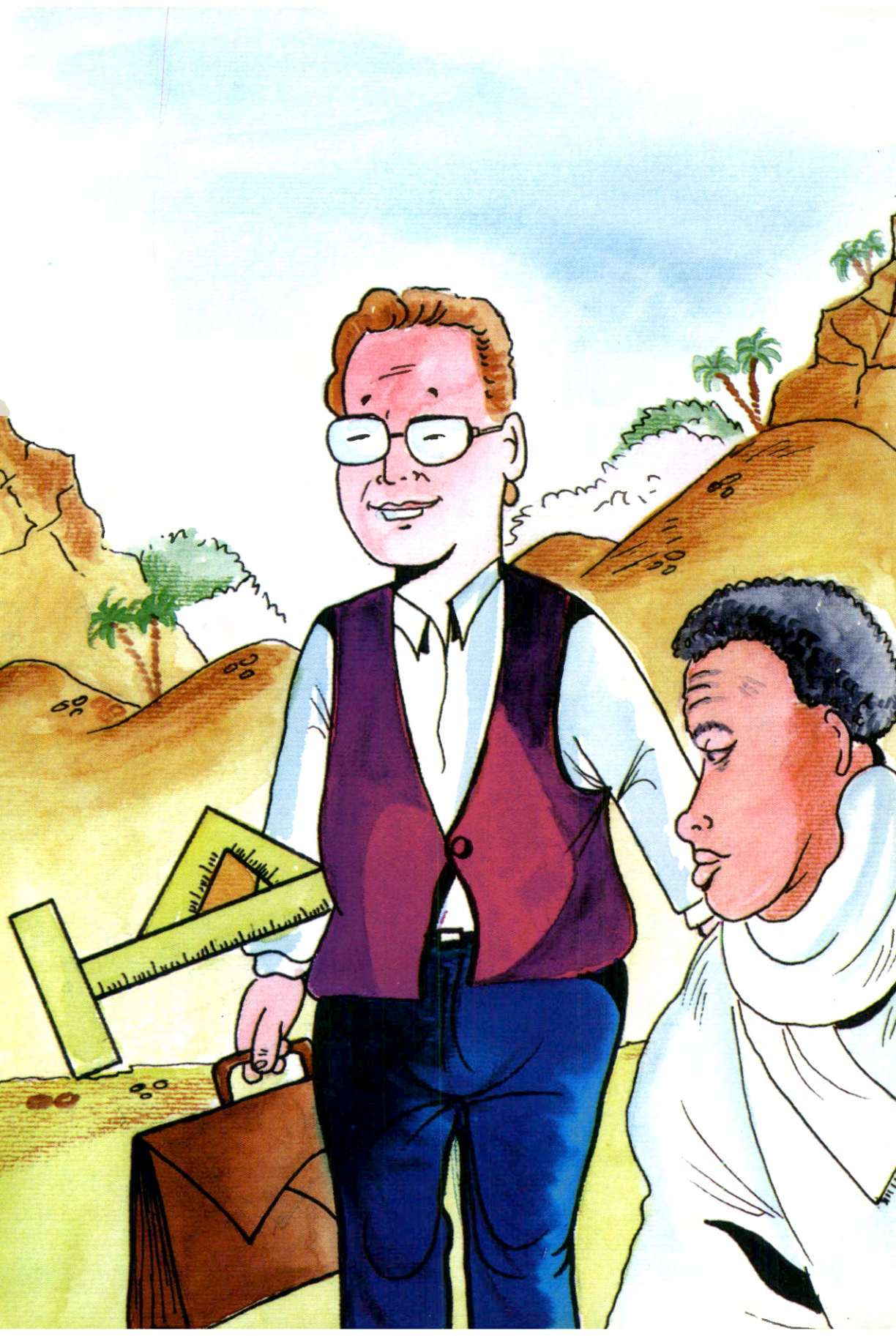

قَال «مَارد» : عندَما تدرِكُ منطقتنا ارفع ترعتَكَ فى الهوَاء؟

علَتْ عاصفَةٌ مِن الضَّحِكِ، اقترَبَ «مَارد» من المهندسِ «أحْمد» وقَال:

- مِسكينٌ أنتَ. . ألستَ فى إجَازة.

- وَكُنت تودُّ أنْ تمتدَّ الإجَازةُ حتَّى تردُمُوهَا.

- ليسَ هنَا من يحمِيك.

وهنَا سَمِعُوا صوتًا قويًّا قادِمًا يُهلِّلُ :

- حمْدًا لله على سلامتك ياباشمهندس.

- أستَاذ «محمَّدٌ» ؟!

- نعَم «محمد السينَاوِى» بشحْمِه ولحْمِه.

تعانقَ الصديقَانِ قَال الأستاذُ «محمَّدٌ» :

- هكذَا أنتَ دائِمًا لا تودُّ أنْ تبْرَحَ «سيناء».

- أتقصِدُ قطع إجَازتى.

- نَعَم.

- هذَا أهونُ منْ قَطْعِ مجرى الرخَاء .

قَال «مَارد» :

- الأستَاذ «محمدٌ» ؟

همسَ أحدُ الرجَالِ فى أذنِ «مَارد» :

- كيْفَ تعارفا .

التفتَ الأستاذ «محمدٌ» نحوَ الرجَالِ الواقِفِينَ وقَالَ:

- السلامُ عليْكُم .

لَمْ يرُد أحَدٌ سوَى أصغرِ الرجَالِ كادَ أنْ يرد، لكنَّهُ ألْجَم لسَانَه فى اللحْظةِ الأخِيرة، غيرَ أنَّ كلمة «سَلامٍ» خرجَت منْ فمِه رغماً عنْه.

صَاحَ «مَارد» للأستَاذِ :

- هَلْ تعرِفُ المهنْدِسَ ؟

قَال الأستَاذُ :

- ليْسَت مجرَّد معرفةٍ بلْ هُوَ الحُب.

قَالَ «مَارد» :

- قُلْ له لا علَيْه بِنَا.

قَال الأستَاذُ «محمدٌ» :

- أمَا زلْتَ ورِجَالك تبْحثُون عَنِ الضيَّاع .

قَالَ «مَارد»: هَذِه أرضُنَا.. ونريدُهَا هكذا بلاَ نَاسٍ.

قَالَ الأستاذُ «محمدٌ» : وهَلْ تحلو الأرضُ بلاَ ناسٍ.. وهل للأرضِ قيمَةٌ بدُونِ النَّاس.. وكيْفَ تَقْدرُ على حِمَايتِهَا إنْ خلتْ مِنَ النَّاس.

قَالَ «مَارد»: طُول عمرْها «سيناء» هكَذا - لنَا .

قَال الأستاذُ «محمدٌ» : «سيناءُ» هِى «مصْرُ».. عَبرَتْ عليهَا جيُوشٌ.. دَارت فوقهَا معارِك.. هِى

والتاريخُ نجمَانِ فى السماءِ.. واليومَ امتلأت أجزاءٌ كبيرةٌ منهَا بالفاكهَةِ اللَّذِيذَة والترعَةُ ستجعَلُ «سيناءَ» تنْطِق.

قال المهندِسُ «أحمد»: ولوْ نطقَتْ الترعةُ يا «مَارد» لحكَت لك عن الماضِى وأعطتك مفاتِيحَ المستقبَل.

قَالَ «مَارد» : أنَا لا أفهَمُ هذَا الكلاَم.. سأدمِّرُ كُلَّ شَىء.

قَال الأستاذُ «محمدٌ»: تدمرُ نفسك يا «مَارد».. تدمرُ «سيناءَ».. القلبَ والأرضَ والسماءَ هَل تَسمَعُ ؟

قَال «مَارد» : أسمعُ مَاذا؟

قَال الأستاذُ «محمدٌ» : كلكُم اسمعُوا.. ما أنْ ينسَاب هذَا الصوتُ حتىَّ يستقرَّ فِى القلُوبِ وتتمايَل الرُّءُوسُ طرَبا.

كانتْ «سيناء» قد اعتلَتْ ربْوةً عاليَةً، وأخذَت تنفخُ نايهَا، انسابَ اللحن حزِينًا متقطعًا، وحلَّقتْ طيورٌ فِى الفضَاء، والتفَّت حولهَا الأغنامُ هِىَ الأخْرى حزِينة، بينمَا كانَ «عايشٌ» ورفاقه يتابعون مِنْ قَريبٍ ما يدُورُ منْ حِوَار :

قَالَ «مَارد» : لا عليكَ بهذَا الموضُوعِ يا أستاذُ «محمدٌ».

قَالَ الأستاذُ «محمدٌ»: كيفَ وهو قضيَّتِى وقَضيَّتُكَ .

قَالَ «مَارد» : قَبْل أنْ أمْضِى أحذرُك أنْ تقْحمَ نفسكَ فيه. . دعْ نظرتنَا لك كمَا هِى «المعلم».

قَالَ الأستاذ «محمدٌ» : والعِلْمُ يحتِّمُ علَىَّ أنْ أعلمَك بأننِى لنْ أسكتَ علىَ أىِّ ظلم.

قَال «مَارد» : إذَنْ فلتشْتعِل الحرْبُ.. هيَّا يا رجَال.. قبلِ أن يعُودَ الحفارُونَ والمهنْدِسُون نكونُ قدْ أفْسَدْنا كُلِّ شَىْء.

وانطلَقَ «مَارد» ورجَاله.

التفتَ الأستاذُ «محمدٌ» للمهندسِ «أحمد» الذِى كانَ لا يزالُ يتابِعُ «مَارد» ورجَالَه وهُمْ يمضُون. وقال ضاحِكا:

- نحنُ هنَا يا بَاشمهندس.. احْكِ لنا عنِ الوادِى القدِيم.

- كيفَ أحكِى لك الآنَ عنْ هناكَ، وعقْلِى وقلْبِى هنَا.

قال الأستاذُ «محمدٌ» :

- إنَّ الذى صَحَّ هناكَ يا باَشمهندس سوفَ يصحِ هنَا.

قَال المهندسُ «أحمد» :

- رجعنَا للفلسَفة.. كيفَ نُواجِهُ هؤلاء ؟

قَال الأستاذُ «محمدٌ» :

- اطمئِن.. إنهُم لا يظْهَرون إلاَّ عندمَا يتوقَّفُ العمَل.

قَال المهندسُ «أحمدُ» :

- رَائعٌ يا أسْتاذُ «محمدٌ» .. لَنْ نتوقفَ عَنِ العمَل.

قَال الأستاذُ «محمدٌ» :

- بهذَا ستَمتدَ الخُضْرة .

قال المهندسُ «أحمدٌ»:

- حُلْمى أنْ تحَاطَ كلُّ قريَةٍ بدوائِرَ ومربعَاتٍ منَ النَّخِيل.

قَال الأستاذُ «محمدٌ» :

- نخْلنَا كَثيرٌ كَثيرٌ لكنى أحْلُم معَك بِالزيَادَةِ عندنَا يا باَشمهندس مِن «العَرِيش» إلى «بُحَيرة البردَويل» لمسَافةِ ثلاثِينَ كيلومترا يقفُ النخِيل شامِخًا باسقا للسمَاء. وهنَا كفت «سيناءُ» عنِ النَفخِ فى النَّاى، وجَرَت مع الأولادِ، ابتهجَ الأستَاذُ محمدٌ وقال:

- هيَّا الآنَ نحتفِلُ بقدُومِ المهنْدِس «أحمد».

أمسكَ الأولادُ اللوحاتِ المرسُومة، وطافُوا فى شكلِ دَائرةٍ حولهُمَا، وراحُوا يرددُون خلفَ «عايش» و«سيناء» :

«المَاءَ المَاءَ المَاء. . الخضرةَ فى وسَطِ المَاء.. المـاءَ المـاءَ المـاء.. احفظـه يـا ربَّ المـاء.. المَاءَ.. الخضْرةُ تنَاجِى المَاء.. المَاءَ المَاءَ المَاءَ.. والعَنزةُ تنَادِى المَاء.. مَاء مَاء مَاء.. عشْبٌ وادينَا دَوَاء.. المَاء المَاء المَاء.

بدأ كُلُّ شىءٍ فِى الوادِى ينجَذِبُ لَهُم مِن جِمَالٍ وحَمِيرٍ وأغنَامٍ وخيْلٍ، وظهرَت السعَادَةُ على وجُوهِ الجمِيعِ وأطلت من عيُونِ الحيَواناتِ كأنَهَا هى الأخْرى ترددُ :

(المَاءَ المَاءَ المَاء.. الخضرةُ فى وسَطِ المَاء.. احفظْه يا ربَّ المَاء، المَاءُ لسِينَاء) وهنَا سمعُوا صرخَة قوية: أينَ هَذَا الماءُ أيُّهَا المجانِين؟

نظرَ الجميع فوجَدُوا «مَارِد» قدْ أتَى ورجَالَه رَاكِبِينَ عرباتٍ ضخْمَةَ وَجَرَّاراتٍ وآلاتِ هَدْم.

قال «مَارِد» :

- سوْفَ نَردُمُهَا .

قال المهندسُ «أحمدٌ» :

- إياكَ أنْ تقتربَ يا «مَارِد» .. سوْفَ نتَدْمَ .

ضَحِكَ «مَارِد» بصوْتٍ عَالٍ، وقَال لرجَالِه :

- يقُول لِى ستندْمَ.. هيَّا تقدمُوا.. واهْدِمُوا.

قال الأستاذُ «محمدٌ» :

- ما أسهلَ أنْ تهْدمَ وما أصعَبَ أنْ تبنى.. الخرابُ موتٌ يا «مَارِد» .

وهنَا اعتلَى «عايش» حصاناً، ونفخَتْ «سيناءُ» نايهَا، ودمعَت عيناهَا، عندمَا أحسَّت أنَّ الصيَاحَ قد ابتلعَ صوت نايهَا، فاعتلت هِىَ الأخرى حِصَانًا، أما بقية الأولادِ، فقد فعلوا مثلهُم وركبُوا الخيول والجِمَال والحمِير، وكانَ «مَارِد» قدْ بدأ عمليَّةَ الرَّدْمِ، ورجَالهُ يحاولُونَ تَجنُّب أىَّ اشْتباكٍ مع الأستاذِ «محمدٌ» والمهنْدِس «أحمدٌ».

وِاندفعَ موكبُ «عايش» و«سيناءُ» يجوبان الوادِى وخلفهم أولادٌ كثيرُون :

صاحَ «عايش» فِى جَمْعٍ من الواقِفِين :

- مَنْ علمَه الأستاذُ محمدٌ السيناوِى حرْفًا فليتبعْنَا إليْه .

قَالَ أحدُهُم : لِمَاذا ؟

قَال «عايش» :

- هناك منْ يُهِنِ الأستَاذ .

- الأستَاذُ يُهَان ؟!

وهنَا تبعَهُم الواقفُون واستطردَ عايش قائِلاً :

- هلُمُّوا إلى حيثُ تُشَقُّ الترعَة.. هناكَ يهَانُ الأستاذُ السيناوى الذِى علمنَا.. مَنْ علمه الأستاذُ فليتبعْنَا.

كان كلَّمَا مضَى «عايش» و«سيناء»، تبعهُم عددٌ كبيرٌ مِنَ النَّاس، فالأستاذُ «محمد السيناوى» علمَ الكثيرِين، علمَهُم أنَّ «سيناء» أرْضاً باركهَا الله، وهَا هِىَ «العريش» أول مدينَـةِ مصريَّـة دخلَـهَا «عمـرو بـنُ العـاص».. هنَـا ذكريات «صلاحُ الدِّين».. هنا مَرت جيـوشُ «نـابليُون» وجَـاءتْ «حتْشبسـوت» إلى «سـيناءَ» لتصلُـحَ مـا أفسَـده «الهكسُوس»، وهنَا وليْسَ ببعِيد - فـى الجنُـوبِ كلَّمَ الله موسَى تكلِيمًا.. هنَا النخْل الباسقات والهـوَاء النقـى، وقصاصُو الأثرِ، وقانونَ المحبَّة وشُـيُوخ القبـائِل ونسْل «قحْطان» و«عدْنـان».. هنَـا الأرضُ والتـاريخ والإنسَـان، وتعميرُ الأرضِ هنَا لحِمَاية المكانِ.

تزايِدَت أعدَادٌ وأعدَادٌ خلْف «عايش» و«سيناء» وصَاحَ شَابٌّ غاضِبا :

- كيف يـا «عـايشِ» يريـدُون ردْم شـريَانِ الحيَـاة.. وأينَ أنَا وأيْنَ القبائِل المتفرقة فِى أرضِ «سيناء».

صَاحَ «عايش» :

- وهَا نحْنُ جَمِيعاً. . هيَّا نتجِهُ صوبَ المكَان..

وكَـانُوا خـلاَل سـيْرِهم يتدفـقُ الأولادُ والشـبابُ والعجَائزُ، وغطى موكبَ الأولادِ سِرْبٌ مِنْ طيُورٍ تحلقُ فى السمَّاء، واتجهُوا جَميعاً إلى هنَاك.

كان «مَارِد» ورجالُه يواصِلُون ردمَ الترعَة، وكان المهندسُ «أحمدٌ» والأستاذُ «محمدٌ» يواصلان دفعَ البعْضِ مِن رجَالِ «مَارِد» ، نَظر «مَارِد» فوجد الموْكبَ قادِمًا، تعجبَ «مَارِد» :

- مَنْ أتَى بكلِّ هؤلاء ؟

زحفُوا تِجاهَ الترعَة قال «مَارِد» صَارخًا :

- إياكُم والاقتِرابَ.. الاقترابَ مِنْ آلاتِ الرَّدْمِ يُعرضُكم للموْت .

قال «عايش»:

- الموتُ لنَا أهْوَنُ منْ مَوْتِ «سيناء» .

استمرَّ زحفُهُم بلاَ خَوْف، وآلاتُ الردْمِ مَاثلَة أمامِهُم، تقدّمَ الشبابُ والأولادُ ورمَت العجَائزُ نفسهَا فِى المجرى، واستقرَّ الأستاذُ «محمدٌ» والمهندِسُ «أحمدٌ» فى مجرَى الترعَة وقال الأستاذ «محمدٌ» :

- أرِنَا كيفَ تردمُ علَيْنَا ؟!

كَانَت آلاتُ الردْمِ مازالَت تتأرجَحُ فى الهَواء، حينَ صرخ «مَارِد» وهُوَ ينظر فِى مجرى الترعَةِ حيْثُ رأى عجَبًا فصَاحَ غاضباً:

- أوقفُوا الردْمَ.. «سلاَمة»؟!!

- نعم يَا أبِى

- اخْرُجْ.. مَا الذِى أتى بِك ؟

- أتيتُ معَهُم يا أبِى.. لقدْ نادَوا: من علَّمَه الأستاذُ «محمدٌ» شيئاً من العِلم فليَخرج معنَا فخرجت.

- إذن أطعنِى واخرج مثلَما أطعتَ معلِّمَك.

بكِى «سلامَة» :

- بودِّى ألاَّ أعْصِى لكَ أمْرًا يا أبِى.. دع الأستاذَ وشأنَه ودع المجرى لنَا .

وبرِقَت عينَا «سلامَة» فجأةً، لمَحَ شيئاً برزَ مِنَ الرمال، جَرى، مدَّ يدَهُ والتَقطه، أمسَكه صَرخ «مَارِد» فزعاً :

- مَا هَذَا .. دعْهُ يا ولَد .

وقبل أن ينطِقَ «سلامَة» صاحَ الأستاذُ «محمدٌ» :

- لاَ تخَفْ يَا «مَارِد».. هذِه خُوذَةٌ .. خوذة جُندِىٍّ مِصرى سَالَ دمُه فى رمَالِ «سيناء».

وقفَ المهندسُ «أحمدُ» ثابتًا وراحَت عينَاهُ للبعَيد، انْطَلقَت معَ امتِدَاد الأرْضِ وحلَمَ للخُضرة.

اختلَطَت صيحَات: الله أكبر بإشاراتِ النصْرِ حينَ كان جنْدِيًّا فِى ميْدَانِ الحرْب .

وجدوا الله

بينمَا وقفَ الجميعُ ينظرُون للخُوذةِ وكأنَّ على رُءُوسِهِم الطيرَ، شقت صفحَة الفضاءِ يمامَةٌ تردِّدُ:

- ككم ككم وحِّدُوا ربَّكُم.

أفاقَ الأستاذُ «محمدٌ» فاتجه نحوَ «سلامة»، أمسك الخوذَةَ فى يَدِه وقال لمارد:

- هل تقبَلُ أنْ تردمَ هَذِه الخوذَةَ يا«مَارِد» .. تقولُ إنَّ سيناء لك وحْدَك..

أليسَ لصاحبِ الخُوذةِ شىءٌ فيهَا.

بدَت الدهشَةُ على وجُوهِ رجَالِ «مَارِد».. أمَّا «مَارِد» فقدْ نظرَ لاتسَاعِ الأرضِ ولوجْه «سلامة» الذى كانَ لا يزالُ مترقبًا، إنَّه يحبُّ العَالمَ لأنَّ فيه «سَلامة»، «سلامَة» بحلمِه الأبدِى وعزْمِه القوِى، «سلامة» حلمه أنْ يأتِىَ الناسُ، وأنْ تخضرَّ الأرْض، «سلامة» يعرفُ الخوذَةَ ويفهَمُ التاريخ، لماذَا أقفُ فى وجْهِ «سلَامَة».

وعَاد يلقى بنظْرةٍ على وجُوه الأطفَالِ الرابضِينَ والشبَابِ والعجَائِز.. وللخُوذَةِ التى أخَذَت كل الأبصَارِ وقال :

- هيَّا يا رجَال.. أعيدُوا حفرَ مَا رَدَمْنَاه.

صَاحَ أصغرُ رجَالِه فرَحًا :

- عشْت لنا يا كبِيرنَا

وهنا ظهَرَ البشْرُ على وجُوهِ الجَميعِ، أما «سيناءُ» فقدْ اعتلّتْ ربوَةً عاليَةً وأخذت تنفُخُ فِى نايِهَا، بينمَا كانَ ينصتُ الجميعُ لهذَا اللحْنِ الجميلِ.

* * *

فِى الصبَاحِ وصَلَ عمالُ الحفْر، وكان فِى صدْرِ مُسْتَقْبِليهم - مع المهندسِ «أحمدُ» والأسْتاذِ «محمدٌ» و«عايش» و«سيناء» و«مَارِد» ورجَالِه، والجميعُ فِى فرحٍ بديع يرددُون:

المَاءَ المَاءَ المَاء.

الخضْرَةَ فى وسطِ المَاء.

احفظْه يَا ربَّ المَاء.

وبدَأ العَمَلُ منْ جَدِيد.

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٥٢٠٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6283-8

٧/٢٠٠١/١١٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)